ألفاظ الجنس في المعجم العربيّ
بين الإجمال الدلاليّ والتفصيل
دراسة في علم اللغة الإنثروبولوجيّ

د٠ فهد بن عبد الله الخلف (*)

الملخّص:

يأتي هذا البحث متتبّعًا استعمالات العرب لطائفة من الأفعال الجنسيّة التي تتميّز بوضوح تعبيرها عن العلاقات الجنسيّة في الأعصر السالفة؛ إذ كانت الجواري تملأ قصور الخلفاء والموسرين، وكانت غالب الأفعال الجنسيّة المتعدّية إلى الجواري خالية من الاحتشام الذي يمارس عادةً عند الحديث عن الجنس وشؤونه داخل نطاق الزوجيّة.

وقد استعان هذا البحث بالمقاربة الإنثروبولوجيّة اللغويّة؛ لمحاولة تفسير هذه الظاهرة، ونبش مضمراتها الثقافية عبر التوسّل ببعض العوامل المؤثّرة في الحياة الاجتماعيّة عند العرب المتقدّمين، هذه العوامل لامست حياة كثير من الجواري وبخاصّة اللواتي يُقتَنين؛ لعرض المتعة. ومن أهم هذه العوامل: العامل السياسيّ المنحصر في المكانة التي وصلت إليها بعض الجواري عند الخلفاء وعلية القوم، والعامل الثقافيّ الذي حرصت فيه الجواري على بثّ ثقافتهنّ الواسعة في تلك المجتمعات، والعامل الاجتماعيّ الذي أفرز مظاهر اجتماعيّة متعدّدة الأسباب

(*) الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربيّة وآدابها في كليّة اللغات والعلوم الإنسانيّة – جامعة القصيم.

البريد الإلكترونيّ: fa.alkhalaf@qu.edu.sa

والسلوكيّات، والعامل الدينيّ الذي خصّ الجواري بشيء من الأحكام الشرعيّة الخاصّة التي أغرت السادة باقتناء الجواري للمتعة.

وخلص هذا البحث إلى مجموعة من النتائج التي فسّرت أسباب شيوع هذه الظاهرة في تلك الأعصر من حياة المجتمعات العربيّة مثل: المنزلة السياسيّة لكثير من الجواري في قصور الخلفاء العبّاسيّين، والمنزلة الثقافيّة العليا لكثير من هذه الجواري فقد كُنَّ يتعاطين صنوفًا من المعارف المتداولة في ذلك العصر، والمنزلة الاجتماعيّة التي عاشت في ظلّها كثير من الجواري، وتعاطين مع الأطر والنظم الاجتماعيّة لتلك المجتمعات الممتزجة بالعديد من الأعراق البشريّة، والمنزلة الدينيّة التي نظّمت حقوق الجواري الشرعيّة لما لهنّ ولما عليهنّ من حقوق كفلها الإسلام.

الكلمات المفتاحيّة: ألفاظ الجنس – المعجم العربيّ – الإجمال الدلاليّ – التفصيل الدلاليّ – علم اللغة الإنثروبولوجيّ.

المقدّمة

ينطلق هذا البحث من تساؤل لفت نظري إليه التقليب في معجم لسان العرب لابن منظور، وفي معجم تاج العروس للزبيديّ، والسؤال البحثيّ الذي يحاول هذا البحث الإجابة عنه هو: لِمَ تتعدّى الأفعال اللغويّة الدالّة على تفاصيل العلاقة الحميمة في التراث العربيّ مع الجواري فقط؟ بينما يزيد الاحتشام ولا تذكّر تفاصيل العلاقة الحميمة مع الزوجات الحرّات؟ وكان مصدر هذه الملحوظة التي تتشابك فيها اللغة مع الثقافة المجتمعيّة واضحًا في تبيان معاني الأفعال الجنسيّة في أكبر معجمات الألفاظ في اللغة العربيّة.

وهذا التساؤل الواسع تولّد عنه عدّة تساؤلات فرعيّة هي:

- لمَ تذكّر دلالات الألفاظ الجنسيّة مفصّلة غالبًا مع الجواري؟
- لمَ تذكر دلالات الألفاظ الجنسيّة مجملة مع الحرائر؟
- هل هناك مسوّغات اجتماعيّة لهذه الظاهرة؟
- هل هناك مسوّغات سياسيّة لهذه الظاهرة؛ نظرًا لتمكّن الجواري من علية القوم في تلك الأعصر من خلفاء، ووزراء، وشعراء، وغيرهم؟
- هل الأحكام الشرعيّة الخاصّة بالجواري أسهمت بخصوصيّة التعامل معهنّ؟
- هل هناك عوامل ثقافيّة مرتبطة باللغة وراء التعبير عن هذه الظاهرة؟

واقتضى بناء هيكل هذا البحث أن يقسّم إلى فصلين تندرج تحتهما عدّة مباحث، والفصل الأوّل جاء بعنوان: النصوص اللغويّة من معجمي لسان العرب وتاج العروس، والمباحث المندرجة تحته هي: المبحث الأوّل: الأفعال التي تدلّ على مقدّمات العلاقة الجنسيّة، والمبحث الثاني: الأفعال التي تدلّ على ممارسة العلاقة الجنسيّة المفصّلة، المبحث الثالث: الأفعال التي تدلّ على ممارسة العلاقة الجنسيّة المجملة. وجاء الفصل الثاني بعنوان: تفسير تعدية الأفعال الجنسية

الصريحة إلى الجواري دون الحرائر، والمباحث التي اندرجت تحته هي: المبحث الأوّل: العامل السياسيّ، والمبحث الثاني: العامل الثقافيّ، والمبحث الثالث: العامل الاجتماعي، والمبحث الرابع: العامل الدينيّ. تسبق هذين الفصلين مقدّمة، وتمهيد، وتلحقهما خاتمة، وقائمة المراجع، وفهارس الموضوعات.

ومنهج هذا البحث هو استقراء للمدوّنتين: لسان العرب وتاج العروس، وتحليل الألفاظ الجنسيّة، ومحاولة ربطها بعناصر الثقافة العربيّة الأساسيّة: الاجتماعيّة، والدينيّة، والثقافيّة، والسياسيّة، وتفسير معطيات هذه العناصر انطلاقًا من النصوص المتوافرة التي أمكن جمعها من مظانّها.

وكان الهدف من ذلك محاولة تفسير ظواهر الثقافة التي جعلت العرب تفصّل غالبًا مع الجواري، وتجمل في التعبير مع الحرائر مستعينًا بمعطيات المقاربة اللغويّة الإنثروبولوجيّة.

وقد واجهتني بعض الصعوبات في كون النصوص المفسّرة متناثرة في بطون المصادر التاريخيّة، والأدبيّة، واللغويّة، والدينيّة، والإنثروبولوجيّة. وفي كون هذا البحث جديدًا بعض الجدّة؛ فلم أجد دراسات سابقة خاصّة تناولت هذا الموضوع بالدراسة -بحسب اطّلاعي.

التمهيد

قبل الشروع في هذا البحث يجدر بنا أن نعرّف بأهم حدود المصطلحات الواردة في عنوان البحث؛ لندرك ما المراد منها في البحث، ومن اللافت في هذا الموضوع أنّ الأفعال الجنسيّة في المعجم العربيّ لها حالان: حال تفصيليّة، وحال إجماليّة. والملحوظ أنّ حال التفصيل في شرح المعجم للألفاظ الجنسيّة تكون مع الجواري غالبًا، وفي قليل من الحالات قد يرد الشرح الإجماليّ مع الجواري، ولكنّه خلاف الأصل. أمّا الحرائر فترد معهنّ أفعال الجنس دائمًا ورودًا إجماليًّا، وهذا الأمر استدعى فضوليّ للبحث وراء هذه الظاهرة التي ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالثقافة العربيّة في تلك الأعصر التي كانت تعيش فيها الجواري في المجتمعات الإسلاميّة جنبًا إلى جنب مع النساء الحرائر، ومن المهمّ أن نتبيّن ما المقصود بكلمة جارية وجمعها جوارٍ، وكلمة حرّة وجمعها حرائر الواردتين في عنوان هذا البحث، فلسان العرب وتاج العروس يعرّفان الجارية بأنّها فتيّة النساء(١)، ويفسّرها أصحاب المعجم الوسيط بأنّها الأمَة وإن كانت عجوزًا، والفتيّة من النساء(٢)، وهذا التعريف القاصر يحيلنا إلى مراجعة لفظة (أمة) التي عرفها المعجم الوسيط بـ "المرأة المملوكة خلاف الحرّة"(٣). ومن هنا نتبيّن الفرق بين الجارية المملوكة، والحرّة غير المملوكة، تقول وفاء الدريسيّ: "تعريف الجارية بأنّها المملوكة غائب في هذا المجال [أي: في المعجمات اللغويّة] إلّا أنّنا سنجده حاضرًا في تفسير

(١) انظر لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ، مادّة (ج/ر/ي)، وانظر تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيديّ، تحقيق: مصطفى حجازي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، جـ٣٧، ص٣٤٥، مادّة (ج/ر/ي).

(٢) انظر المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربيّة في القاهرة، الطبعة الثانيّة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، جـ١، ص١١٩.

(٣) المعجم الوسيط، جـ١، ص٢٨.

بعض الكلمات الأخرى، فقمطر المرأة، وقمطر جاريته نكحها... فهذا التمييز بين المرأة من ناحية، والجارية من ناحية أخرى يشي بأنّ المرأة في الأغلب هي الحرّة في حين أنّ الجارية هي المملوكة"[١]، وتضيف أيضًا أنّ "العرب وإن لم يعرفوا كلمة جارية بأنّها مملوكة إلّا أنّ في كلامهم ما يؤكّد ترسّخ استعمالات هذه اللفظة في بيئتهم"[٢].

وقد وجدتُ أنّ المقاربة المناسبة لهذا الموضوع هي علم اللغة الإنثروبولوجيّ الذي يُعنَى بعلاقة اللغة بالثقافة، وهو جزء من علم الإنثروبولوجيا الثقافيّ[٣]؛ لذا سنتناول هذا الموضوع تناولًا إنثروبولوجيًّا يحلّل علاقة ألفاظ اللغة بالثقافة الاجتماعيّة ذات المظاهر المختلفة من سياسة ودين واجتماع. وكان مصدر هذه الملحوظة التي تتشابك فيها اللغة مع الثقافة المجتمعيّة واضحًا في تبيان معاني الأفعال الجنسيّة في أكبر معجمات الألفاظ في اللغة العربيّة: لسان العرب لابن منظور (ت٧١١هـ)، وتاج العروس في جواهر القاموس للزبيديّ (ت١٢٠٥هـ).

وعلم اللغة الأنثروبولوجيّ فرع من فروع علم الإنثروبولوجيا الثقافيّة، وهو علم: "يهتمّ بدراسة ثقافة المجتمعات الإنسانيّة، خاصّة البدائيّة منها، ومن الطبيعيّ أن تنال اللغة عناية المشتغلين بهذا العلم؛ لأنّها جزء من ثقافة أيّ مجتمع إنسانيّ،

(١) الجواري والغلمان في الثقافة الإسلاميّة مقاربة جندريّة: وفاء الدريسيّ، مؤمنون بلا حدود، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م، ص٢٤.

(٢) الجواري والغلمان في الثقافة الإسلاميّة مقاربة جندريّة: وفاء الدريسيّ، ص٢٥.

(٣) انظر الأنثروبولوجيا الثقافيّة: فاروق مصطفى إسماعيل، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٢٩.

وهي تعكس بوضوح أفكار المجتمع ومعتقداته"[١]، وهو أيضًا "دراسة اللغة كثروة ثقافيّة، والكلام كممارسة ثقافيّة"[٢].

إذن استخدام معطيات هذا العلم ستفسّر لنا المضمرات الثقافيّة وراء هذه الظاهرة التي عكستها لنا اللغة في تعبيرها عنها، ومن أبرز الموضوعات التي يهتمّ بها علم اللغة الإنثروبولوجي ما يأتي:

الأوّل: دراسة العلاقة بين اللغة وبيئتها الثقافيّة التي نشأت فيها.

الثاني: معرفة لغات المجتمعات البدائيّة التي ليس لها لغات مكتوبة، ولم يؤثر عنها إبداع أدبيّ مدوّن.

الثالث: دور اللغة في فهم طبيعة المجتمع الإنسانيّ، والكشف عن هذه الطبيعة من المنظور اللغويّ.

الرابع: علاقة اللغة المستخدمة في المناسبات الاجتماعية بأفكار الجماعة اللغويّة وتجاربها ومعتقداتها نحو: ممارسة الشعائر الدينيّة وتقاليد الزواج وتقاليد الولادة والوفاة...

الخامس: لمعرفة دور اللغة في حياة المجتمعات الإنسانيّة يجدر بالباحث أن ينخرط بالدور الاجتماعي للغة الذي يهتمّ بدلالات الألفاظ في سياقات ثقافيّة محدّدة نحو: السؤال عن الأحوال وحكاية القصص والتحيّات والمجاملات الاجتماعيّة[٣].

السادس: لا يعنى الباحثون في علم اللغة الإنثروبولوجي بدراسة المستويات اللغويّة مثل: الأصوات والنحو، وإنّما الذي يعنيهم هو النظر في ثقافة الناطقين

---

(١) قاموس علم اللغة إنجليزيّ–عربيّ: محمود سليمان ياقوت، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص٧٥.

(٢) الأنثروبولوجيا الألسنيّة: دورانتي، ألسندرو، ترجمة: فرانك درويش، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م، ص٢٢.

(٣) انظر قاموس علم اللغة إنجليزيّ–عربيّ: محمود سليمان ياقوت، ص٧٥– ٧٦.

باللغة المدروسة؛ لذا تعدّ الاستعانة ببعض المعلومات الثقافيّة عن الجماعة اللغويّة المدروسة مهمّة في دقّة تفسير معاني الألفاظ ووضوح دلالتها(١).

السابع: يهتمّ الإنثروبولوجيون الألسنيون بدراسة قدرة اللغة على إيجاد التمايزات أو السماح لها بالتجلّي في الهويّات والأشخاص(٢).

ومع مرور الزمن تطوّرت فروع علم اللغة الإنثروبولوجيّ، واستقلّ بعضها وكأنّه صار علمًا مستقلًّا، ومن هذه الفروع التي نالت اهتمامًا خاصًّا، وكثرت فيها الدراسات والمؤلّفات علم الإنثروبولوجيا اللغويّة التي تقارب قضايا الجنس، وهذا الفرع له مجالات بحثيّة متعدّدة، و"يبحث أنثروبولوجيا الجنس في الطرائق المتنوّعة التي يعتمدها البشر للحديث عن الأفعال والأنشطة والتجارب الحسيّة والجنسيّة وتجسيدها في الثقافات المختلفة"(٣).

وللتدليل على ورود الأفعال الجنسيّة مجملةً مع الحرائر أورد بعض الأمثلة على ذلك:

قال ابن منظور: "ويقال: حَرَحْتَ المرأة إذا أصبتَ حِرَها" (لسان العرب، (مادة: [ح/ر/ح]).

و"أبل الرجل عن امرأته إذا امتنع من غشيانها" (لسان العرب، مادّة [أ/ب/ل])، و"باشر الرجل امرأته مباشرة وبشارًا كان معها في ثوب واحد، فوليت بشرته بشرتها" (لسان العرب، مادّة [ب/ش/ر])، و"رجل تيتاء وثيتاء، وهو الزمّلق، وهو الذي يقضي شهوته قبل أن يفضي إلى امرأته" (لسان العرب، مادّة [ت/ي/ت])،

(١) انظر الأنثروبولوجيا اللغويّة: مها محمّد معاذ، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، د.ط، ٢٠٠٧م، ص٩٠-٩١.

(٢) انظر الأنثروبولوجيا الألسنيّة: دورانتي، ألسندرو، ص٢٩.

(٣) أنثروبولوجيا الجنس: دونان، هاستنغر & ماغوان، فيونا، ترجمة: هناء خليف غني، المركز الأكاديميّ، للأبحاث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م، ص٣١.

و"والمثاغمة والمفاغمة ملاثمة الرجل امرأته" (لسان العرب، مادّة [ث/غ/م])، و"خالط الرجل امرأته خلاطًا جامعها" (لسان العرب، مادّة [خ/ل/ط])، و"الرفث الجماع وغيره ممّا يكون بين الرجل وامرأته يعني التقبيل والمغازلة ونحوهما ممّا يكون في حالة الجماع" (لسان العرب، مادّة [ر/ف/ث])، و"اهتدى الرجلُ امرأتَه إذا جمعها إليه وضمّها" (لسان العرب، مادّة [هـ/ د/ ي])، "زخّ المرأةَ يزخُّها زخًّا وزخزخها نكحها" (لسان العرب، مادّة [ز/ خ/ خ])، "آر الرجل حليلته يؤورها وآرها يئيرها أيْرًا إذا جامعها" (لسان العرب، مادّة [أ/ي/ر])، و"الغيل: وذلك أن يجامع الرجل المرأة وهي مرضع، وقد أغال الرجل وأغيل" (لسان العرب، مادّة [غ/ي/ل])، و"دحم المرأة يدحمها دحمًا نكحها" (لسان العرب، مادّة: [د/ح/م]).

كلّ الأفعال الخاصّة بالحرائر التي أوردناها تتّسم بالإجمال الذي يعبّر عن الاحتشام في وصف العلاقة بين الرجل وزوجه الحرّة دون تفصيل في شرح الأفعال الجنسيّة.

وظاهرة التفصيل غالبًا في شرح العلاقة الجنسيّة مع الجواري تحتمل عدّة تفسيرات مرتبطة بالثقافة، ولم أجد –بحسب اطّلاعي– من فسّر ذلك سوى نصّين عامّين؛ أولهما لأبي عثمان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وهو: "قال بعض من احتجّ للعلّة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات أنّ الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمّل كلّ شيء منها، وعرفه خلا حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرّة إنّما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء، وحاجات الرجال وموافقتهنّ قليلًا ولا كثيرًا، والرجال بالنساء أبصر، وإنّما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، وأمّا الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنّها لا تعرف ذلك، وقد تحسن المرأة أن تقول: كأنّ أنفها السيف، وكأنّ عينها عين غزال، وكأنّ عنقها إبريق فضّة، وكأنّ ساقها جمارة، وكأنّ شعرها العناقيد، وكأنّ أطرافها المدارى، وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أخر

بها يكون الحبّ والبغض"[١]، وثانيهما لوفاء الدريسيّ، وهو: "وردت هذه الأفعال [أيْ: الأفعال الجنسيّة] سابقة لجاريته ما يرجّح أنّ أغلب الرجال يبحثون عن امرأة فتيّة، وصبيّة، وسلسة، ومطواعة، تخدمهم في الفراش، وبهذا تصير الجارية نعمة من الله فتجتمع المعاني الحافّة بجذر (ج–ر–ي) في امرأة يبذل الرجال أموالًا طائلة في سبيل الحصول عليها"[٢].

وهذا سبب واحد عامّ ذكره الجاحظ يتعلّق برؤية الجارية قبل امتلاكها، والسبب الذي ذكرته وفاء الدريسيّ يتضمّن بعض الصفات التي تتصف بها الجواري مثل: فتيّة، وصبيّة، وسلسة، ومطواعة، وكلّ هذه الصفات تندرج تحت المادّة اللغوية (ج/ر/ي)، وهذه الصفات ممّا يبحث عنها الرجال في تلك الأزمان، وفي رأيي أنّ هناك أسبابًا كثيرة قد تتجلّى في البحث المعمّق في هذه الظاهرة؛ وهذا ما دعاني إلى بحث هذه الظاهرة اللغويّة اللافتة.

(١) رسائل الجاحظ وهي رسائل منتقاة من كتب الجاحظ لم تنشر قبل الآن: عمرو بن بحر الجاحظ، جمعها ونشرها: حسن السندوبيّ، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ص٢٧٤.

(٢) الجواري والغلمان في الثقافة الإسلاميّة مقاربة جندريّة: وفاء الدريسيّ، ص٢٥، ص٢٦.

الفصل الأوّل

النصوص اللغويّة من معجمي لسان العرب وتاج العروس

في هذا الفصل سأعرض لأهمّ الأفعال التي عبّر بها العرب عن العلاقة الجنسيّة مع الجواري، وهي أفعال متنوّعة في تعبيرها عن العلاقة الجنسيّة ومقدّماتها، وكما هو ملحوظ من الأمثلة الآتية فإنّ الأفعال الجنسيّة المتعدّية إلى الجواري تمتاز غالبًا بالصراحة، والمباشرة في وصف العلاقة الجنسيّة:

المبحث الأوّل: الأفعال التي تدلّ على مقدّمات العلاقة الجنسيّة:

اعتنى العرب الذين اقتنوا الجواري بالتعبير عن مقدّمات العلاقة الجنسيّة، وخصّصوا لها بعض الأفعال الآتي ذكرها:

الفعل الأوّل: ابتزّ في قولهم: "ابتزّ الرجل جاريته من ثيابها إذا جرّدها، ومنه قول امرئ القيس:

إذا ما الضجيع ابتزّها من ثيابها ... تميل عليه هونة غيرَ متفال"[(١)]

الفعل (ابتزّ) يدلّ على قيمة الجارية عند سيّدها؛ إذ لا يطلب منها أن تتجرّد من ملابسها، بل هو من يخلع ملابسها قبل الجماع، وهذا يحصل قبل العلاقة الجنسيّة معها كما هو معلوم.

الفعل الثاني: قبّل في قولهم: "إذا قبّل جاريته رَضَبَ ريقها"[(٢)].

الفعل (قبّل) يبدو أنّه عامّ في تقبيل المرأة الحرّة، والأبناء، وغيرهم، لكنّ الفعل (قبّل) في هذا السياق قد تعدّى إلى الجارية المملوكة لسيّدها، وجلّى هذا السياق تفصيل القبلة بكونها ليست مجرّد قبلة سطحيّة، بل هي قبلة عميقة يتخلّلها تذوّق ريقها.

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ب/ز/ز]، جـ٥، ص٣١٢.

(٢) السابق، مادّة [ر/ض/ب]، جـ١، ص٤١٨.

الفعل الثالث: راود في قولهم: "راود فلان جاريته عن نفسها، وراودته هي عن نفسه إذا حاول كلّ واحد من صاحبه الوطء والجماع"(١).

الفعل (راود) في هذا السياق الذي تعدّى فيه إلى الجارية، وإلى سيّدها في الوقت ذاته؛ إذ يتبادل السيّد وجاريته كلامًا فيه إغراء ومفاوضة بطلب العلاقة الجنسيّة التي يرغب الطرفان في أدائها. وليس في الفعل (راود) ما يدلّ على الاشتراك في حصول الإغراء في الحديث الجنسي فيما بين السيّد وجاريته من كلا طرفي العلاقة، بل يجوز أن يحصل الإغراء في الكلام من أحدهما فقط.

الفعل الرابع: أرشف أو رشف في قولهم: "أرشف الرجل ورشف إذا مصّ ريق جاريته"(٢).

الفعلان (رشف، وأرشف) يدلّان على الشرب في العموم، وفي هذا السياق يدلّان على شرب مخصوص، وهو شرب السيّد لريق جاريته ومصّه.

الفعل الخامس: تسدّى في قولهم: "تسدّى الرجل جاريته إذا علاها"(٣) (س/د/و)

هذا الفعل يحتمل أن يكون من أفعال مقدّمات العلاقة الجنسيّة؛ إذ لا يدل السياق على علو السيّد على جاريته أثناء الجماع. بل العلو قد يكون أحيانًا من ممارسات المداعبة قبل الجماع.

الفعل السادس والسابع والثامن: مصد، ورفّ، ومصّ في قولهم: "مصد جاريته، ورفّها، ومصّها، ورشفها بمعنى واحد"(٤).

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ر/و/د]، جـ٣، ص١٩١.

(٢) السابق، مادّة [ر/ش/ف]، جـ٩، ص١١٩.

(٣) السابق، مادّة [س/د/و]، جـ١٤، ص٣٧٧.

(٤) السابق، مادة [م/ص/د]، جـ٣، ص٤٠٤.

هذه الأفعال الأربعة (مصد، ورفّ، ومصّ، ورشف) أفعال معانيها متقاربة، وهي من أفعال المداعبة التي تستعمل في مقدّمات الفعل الجنسيّ، وكلّها تستعمل في مداعبة السيّد لشفتي جاريته، وشرب ريقها.

الفعل التاسع: تبطّن في قولهم: "تبطّنها إذا باشر بطنُه بطنَها في قوله: إذا أخو لذّة الدنيا تبطّنها"(١)، وهذا الفعل قد يكون من أفعال المقدّمات الجنسيّة قبل الإيلاج، وهو من أفعال الاعتلاء أثناء المداعبة.

نستخلص ممّا مضى عرضه من أفعال مقدّمات العلاقة الجنسيّة بعض النتائج:

النتيجة الأولى: أنّ أفعال المداعبة التي توصّلنا إليها قليلة جدًّا عدّتها تسعة أفعال، ويبدو لي أنّ السبب في قلّة ورود أفعال المداعبة بين السيّد وجاريته هو تركيز السادة على الفعل الجنسيّ أكثر من التركيز على مقدّمات العلاقة الجنسيّة. فلم يتجلَّ في اللغة أفعال كثيرة تدلّ على المداعبات.

النتيجة الثانية: أنّ أفعال مقدّمات العلاقة الجنسيّة مع الجواري منحصرة في بعض المداعبات مثل: المراودة المتبادلة بين السيّد وجاريته حول إقامة العلاقة الجنسيّة، والتجريد من الملابس، والتقبيل، ومصّ الريق، واعتلاء السيّد جاريته قبل المواقعة، وأثناء المداعبة، والمباطنة، أي: مباشرة بطن السيّد لبطن جاريته.

النتيجة الثالثة: تدلّ أفعال مقدّمات العلاقة الجنسيّة على شيء من الشدّة باجتماع بعض الحروف التي تدلّ على القوّة في أداء الفعل التي يبدو أنّ الموقف الجنسيّ يتطلّبها، وذلك من حرص السيّد على المبالغة في الاستمتاع بجاريته.

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ب/ط/ن]، جـ١٣، ص٥٧.

المبحث الثاني: الأفعال التي تدلّ على ممارسة العلاقة الجنسيّة المفصّلة

في هذا المبحث سأتعرّض إلى الأفعال التي عبّر بها بعض العرب من مالكي الجواري عن ممارسة العلاقة الجنسيّة مع جواريهم:

الفعل الأوّل: تبطّن في قولهم: "تبطّن الرجل جاريته إذا باشرها، ولمسها، وقيل: تبطّنها إذا أولج ذكره فيها، قال امرؤ القيس:

كأنّي لم أركب جوادًا للذّة ... ولم أتبطّن كاعبًا ذات خلخال"(١)

هذا الفعل يتضمّن دلالتين في اللغة العربيّة هما: الأولى: تلامس بشرة السيّد وجاريته أثناء العلاقة الجنسيّة، والثانية: تدلّ على إيلاج الأير في الفرج.

الفعل الثاني: خاش في قولهم: "خاش الرجل جاريته بأيره، قال [ابن شميل]: والخوش كالطعن"(٢).

يدلّ الفعل خاش في هذا السياق على قوّة إيلاج الأير في الفرج؛ لذا شبّهه ابن شميل بالطعن بجامع القوّة في كلّ.

الفعل الثالث: دعس في قولهم: "دعس فلان جاريته دعسًا إذا نكحها، والدعس شدّة الوطء"(٣).

يدلّ الفعل (دعس) في هذا السياق الجنسيّ على شدّة جماع السيّد لجاريته مبالغة في التلذّذ بها.

الفعل الرابع: داس في قولهم: "داس الرجل جاريته إذا علاها، وبالغ في جماعها"(٤).

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ب/ط/ن]، جـ١٣، ص٥٧.

(٢) السابق، مادّة [خ/و/ش]، جـ٦، ص٣٠٠.

(٣) السابق، مادّة [د/ع/س]، جـ٦، ص٨٤.

(٤) السابق، مادّة [د/و/س]، جـ٦، ص٩٠.

هذا الفعل الجنسيّ يصوّر الوضع الجنسيّ للسيّد، وهو يجامع جاريته بكونه معتليَها، ويبالغ في شدّة جماعها بغية التلذّذ بها.

الفعل الخامس: دكّ في قولهم: "دكّ الرجل جاريته إذا جهدها بإلقائه ثقله عليها إذا أراد جماعها، وأنشد الإيادي:

فقدتك من بعل علامَ تدكّني ... بصدرك لا تُغني فتيلًا ولا تُعلي؟"(١)

يدلّ الفعل دكّ على الشدّة الحسيّة في الجماع إذ يرمي السيّد بثقله على جاريته حتّى يجهدها، وبذلك يبلغ غايته في التلذّذ بها.

الفعل السادس: دوقل في قولهم: "دوقل فلان جاريته دوقلةً إذا أولج فيها كمرته"(٢).

يصوّر الفعل (دَوْقَلَ) درجة من درجات إيلاج الأير في فرج الجارية، وهذا الفعل يعبّر عن درجة الاكتفاء بإيلاج رأس الأير فقط، وهو ما يُسمَّى بالكمرة أو الفُصْعة.

الفعل السابع: رطم في قولهم: "رطم جاريته رطمًا إذا جامعها فأدخل ذكره كلّه فيها"(٣).

يصوّر الفعل (رطم) درجة من درجات إيلاج أير الرجل في فرج المرأة، وهذا الفعل يعبّر عن الدرجة القصوى من درجات الإيلاج، وهي إيلاج الأير كاملًا.

الفعل الثامن: سغم في قولهم: "سغم الرجل جاريته جامعها، والسغم كأنه رجل لا يحبّ أن ينزل في المرأة فيدخله الإدخالة ثمّ يخرجه"(٤).

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [د/ك/ك]، جـ١٠، ص٤٢٦.

(٢) السابق، مادّة [د/ق/ل]، جـ١١، ص٢٤٦.

(٣) السابق، مادّة [ر/ط/م]، جـ١٢، ص٢٤٤.

(٤) السابق، مادّة [س/غ/م]، جـ١٢، ص٢٨٨.

الفعل (سغم) يصوّر حالة من حالات عزل ماء السيّد عن فرج الجارية باستخدام إستراتيجيّة إيلاج الأير ثمّ إخراجه حتّى لا يحصل الحمل.

الفعل التاسع: شرح في قولهم: "وشرح جاريته إذا سلقها على قفاها ثمّ غشيها"، "وشرح جاريته إذا وطئها نائمة على قفاها"(١).

الفعل (شرح) يصوّر وضعًا من الأوضاع الجنسيّة، وهذا الوضع هو أن تنام الجارية على قفاها، ثمّ يعلوها سيّدها أثناء الجماع.

الفعل العاشر: أفهر في قولهم: "أفهر الرجل إذا خلا مع جاريته؛ لقضاء حاجته، ومعه في البيت أخرى من جواريه فأكسل عن هذه أي: أولج ولم ينزل فقام من هذه إلى أخرى فأنزل معها"(٢).

يشرح الفعل (أفهر) سلوكًا جنسيًّا قد لا يكون مقبولًا، وهو جماع السيّد لجاريته، ولا ينزل معها ثمّ يجامع جارية أخرى، وينزل معها، ويبدو لي أنّ هذا الفعل لا يجرؤ السيّد أن يمارسه مع النساء الحرائر. ولكنّهم يستمرئون ممارسة ذلك مع الجواري؛ لأنّهم يملكونهنّ كالمتاع.

الفعل الحادي عشر والثاني عشر: الفعلان هكّ، وهقّ في قولهم: "هكّ جاريته، وهقّها إذا جهدها بكثرة الجماع"(٣).

هذان الفعلان يدلّان على إجهاد السيّد لجاريته الناجم عن كثرة الجماع.

الفعل الثالث عشر: صلق في قولهم: "صلق جاريته: بسطها على ظهرها فجامعها"(٤).

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ش/ر/ح]، جـ٢، ص٤٩٨.

(٢) السابق، مادّة [ف/ه/ر]، جـ٥، ص٦٦.

(٣) السابق، مادّة [ه/ق/ق]، جـ١٠، ص٣٦٩.

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيديّ، مادّة [ص/ل/ق]، جـ٢٦، ص٣٧.

الفعل (صلق) يصوّر وضعًا جنسيًّا، وهو أن يبسط السيّد جاريته على ظهرها ثمّ يجامعها.

الفعل الرابع عشر: حرش في قولهم: "حرش جاريته جامعها مستلقية على قفاها"(١).

هذا الفعل يصوّر وضعًا جنسيًّا، وهو أن يُجامع السيّد جاريته وهي مستلقية على قفاها.

وفي ختام هذا المبحث نلحظ ما يأتي:

الملحوظة الأولى: بعض أفعال مبحث الألفاظ الجنسيّة المفصّلة تدور حول إيلاج الأير بدرجاته التي تتراوح بين الاكتفاء بإيلاج الكمرة، وإدخاله كاملًا.

الملحوظة الثانية: بعض أفعال هذا المبحث تصوّر بعضًا من الأوضاع الجنسيّة التي كانت شائعة عند العرب قديمًا.

الملحوظة الثالثة: عبّرت بعض أفعال هذا المبحث عن الأفعال الجنسيّة التي يجهد فيها السيّد جاريته بشدّة الجماع.

المبحث الثالث: الأفعال التي تدلّ على ممارسة العلاقة الجنسيّة المجملة

هذه الطائفة من الأفعال لا تصف تفصيلات العلاقة الجنسيّة بين السادة وجواريهم، بل إنّ فيها من الاحتشام ما يقارب الأفعال التي تصف العلاقة الجنسيّة بين المتزوّجين؛ لذا سنذكرها دون تفصيل، وقد يكون إدراجها في هذا البحث من باب أنّها أفعال وردت في اللغة العربيّة متعدّية إلى الجواري، وهذه الأفعال على النحو الآتي:

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد مرتضى الحسيني الزبيديّ، مادة [ح/ر/ش]، جـ١٧، ص١٣٥.

الفعل الأوّل: أفهر في قولهم: "أفهر الرجل إذا كان مع جاريته، والأخرى تسمع حسّه"(١).

الفعل الثاني: ضاجَع في قولهم: "ضاجع الرجل جاريته إذا نام معها في شِعار واحد"(٢).

الفعل الثالث: طبز في قولهم: "طبز فلان جاريته طبزًا جامعها"(٣).

الفعل الرابع: عفج في قولهم: "عفج جاريته نكحها"(٤).

وهذا الفعل أُطلق على جماع الجارية من باب المجاز، وهو في الأصل يُطلق على الرجل الذي يفعل بالغلام فعل قوم لوط –عليه السلام–(٥).

الفعل الخامس والسادس والسابع: عسد، وعزد، وعصد في قولهم: "عسد فلان جاريته وعَزَدَها وعصَدَها إذا جامعها"(٦).

الفعل الثامن: عفق في قولهم: "عفق الرجل جاريته إذا جامعها"(٧).

الفعل التاسع: عزل في قولهم: "عزل الرجل الماء عن جاريته إذا جامعها؛ لئلّا تحمل"(٨).

الفعل العاشر والحادي عشر: افتضّ، واقتضّ في قولهم: "افتضّ الرجل جاريته، واقتضّها إذا افترعها"(٩).

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ف/ه/ر]، جـ٥، ص٦٦.

(٢) السابق، مادّة [ض/ج/ع]، جـ٨، ص٢١٩.

(٣) السابق، مادّة [ط/ب/ز]، جـ٥، ص٣٦٨.

(٤) السابق، مادّة [ع/ف/ج]، جـ٢، ص٣٢٥.

(٥) انظر: السابق، مادّة [ع/ف/ج]، جـ٢، ص٣٢٥.

(٦) السابق، مادّة [ع/س/د]، جـ٣، ص٢٩٠.

(٧) السابق، مادّة [ع/ف/ج]، جـ٢، ص٣٢٥.

(٨) السابق، مادّة [ع/ز/ل]، جـ١١، ص٤٤١.

(٩) السابق، مادّة [ف/ض/ض)، جـ٧، ص٢٠٧.

الفعل الثاني عشر: قمطر في قولهم: "وقمطر المرأة، وقمطر جاريته قمطرة نكحها"(١).

الفعل الثالث عشر: كاش في قولهم: "كاش جاريته أو المرأة يكوشها كوشًا نكحها"(٢).

الفعل الرابع عشر: معج في قولهم: "معج الرجل جاريته يمعجها إذا نكحها"(٣).

الفعل الخامس عشر: مطح في قولهم: "مطح الرجل جاريته إذا نكحها"(٤).

الفعل السادس عشر والسابع عشر: مصد، وعصد في قولهم: "الليث: المصد الجماع يقال: مصد الرجل جاريته، وعصدها إذا نكحها"(٥).

الفعل الثامن عشر: مغد في قولهم: "مغد الرجل جاريته يمغدها إذا نكحها"(٦).

الفعل التاسع عشر: ملق في قولهم: "ملق الرجل جاريته وملجها إذا نكحها"(٧).

الفعل العشرون: وجس في قولهم: "الوجس هو أن يجامع الرجل امرأته أو جاريته والأخرى تسمع حسّهما"(٨).

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [ق/م/ط/ر]، جـ٥، ص١١٦.

(٢) السابق، مادّة [ك/و/ش]، جـ٦، ص٣٤٤.

(٣) السابق، مادّة [م/ع/ج]، جـ٢، ص٣٦٩.

(٤) السابق، مادّة [م/ط/ح]، جـ٢، ص٥٩٩.

(٥) السابق، مادّة [م/ص/د]، جـ٣، ص٤٠٤.

(٦) السابق، مادّة [م/غ/د]، جـ٣، ص٤٠٨.

(٧) السابق، مادّة [م/ل/ق]، جـ١٠، ص٣٤٨.

(٨) السابق، مادّة [و/ج/س)، جـ٦، ص٢٥٣.

الفعل الحادي والعشرون: جلد في قولهم: "ومنه [أي: المجاز] أيضًا: جلد جاريته: جامعها، يجلِدها جَلْدًا"(١)، واستعمال الفعل (جلد) في هذا السياق هو استعمال مجازيّ.

الفعل الثاني والعشرون: دحب في قولهم: "دحب جاريته يدحبها دَحبًا ودُحابًا بالضمّ جامعها"(٢).

الفعل الثالث والعشرون: ذعج في قولهم: "ذعج جاريته: جامعها"(٣).

الفعل الرابع والعشرون: هرج في قولهم: "هرج جاريته إذا جامعها"(٤).

الفعل الخامس والعشرون والسادس والعشرون: الفعلان (عزد، ودعز) في قولهم: عزد جاريته ودعزها أي: جامعها(٥).

الفعل السابع والعشرون: الفعل (خرط) في قولهم: خرط جاريته خرطًا نكحها، وهو استعمال مجازيّ في هذا السياق الجنسيّ(٦).

الفعل الثامن والعشرون: الفعل (ذغّ) في قولهم: ذغّ جاريته جامعها(٧).

الفعل التاسع والعشرون: لتح في قولهم: "لتح جاريته لتحًا إذا نكحها، وجامعها، وهو لاتح وهي ملتوحة"(٨).

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن مرتضى الحسيني الزبيديّ، مادّة [ج/ل/د]، جـ٧، ص٥٠٨.

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس: محمّد بن مرتضى الحسيني الزبيديّ، مادّة [د/ح/ب]، جـ٢، ص٤٠١.

(٣) السابق، مادة [ذ/ع/ج]، جـ٥، ص٥٨٦.

(٤) السابق، مادة [ه/ر/ج]، جـ٦، ص٢٧٧.

(٥) انظر: السابق، مادة [ع/ز/د]، جـ٨، ص٣٧٦.

(٦) انظر: السابق، مادة [خ/ر/ط]، جـ١٩، ص٢٣٩.

(٧) انظر: السابق، مادة [ذ/غ/غ]، جـ٢٢، ص٤٧٢.

(٨) السابق، مادّة [ل/ت/ح]، جـ٧، ص٨٦.

الفعل الثلاثون: دسم في قولهم: "يقال للرجل إذا غشي جاريته: قد دسمها"[١].

وبعد هذا التطواف مع هذا المبحث نسجّل بعض الملحوظات الآتية:

الملحوظة الأولى: يستعمل معجما لسان العرب وتاج العروس الفعل (نكح) بمعنى الفعل الجنسيّ.

الملحوظة الثانية: تناوب الفعلان (جامع، ونكح) في التعبير المحتشم في العلاقة الجنسيّة بين السادة والجواري.

الملحوظة الثالثة: كثرت الأفعال في معجمي لسان العرب وتاج العروس التي تعبّر عن العلاقة الجنسيّة المحتشمة بين السادة، والجواري، ولعلّ تفسير ذلك يعود إلى ما يأتي:

١–أنّ كثرة استعمال الكناية عن اللفظ الجنسيّ المحتشم تصيّره مع مرور الوقت إلى مستوى اللفظ الحقيقيّ في الاستعمال، وهذا ما يسميه بعضهم (تحجّر المجاز)؛ لذا تتولّد ألفاظ جديدة للكناية عن الألفاظ الجنسيّة، وهذه الألفاظ الجديدة قد تكون إمّا مولّدة اللفظ، وإمّا قد جرى على بعض الألفاظ تغيّر دلاليّ زاد من معاني استعمال الألفاظ، ومن هذه المعاني ما له صلة في الكناية عن الجنس.

٢–يبدو أنّ لكثرة لهجات العرب أثرًا في تعداد الألفاظ الجنسيّة، فبعض هذه الألفاظ قد تكون من باب الاستعمال اللهجيّ، فليست جميع هذه الألفاظ مستخدمةً في لهجة عربيّة واحدة.

٣–لعلّ لعموم دلالة هذه الأفعال علاقة بهذه الكثرة، فهي ألفاظ تقتصر دلالتها على فعل الجماع مجملًا، وليس من دلالتها إعطاء تفاصيل العلاقة الجنسيّة مثل: الإشارة إلى الأوضاع، ودرجات الإيلاج، وغيرها.

---

(١) لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، مادّة [د/س/م]، جـ١٢، ص٢٠١.

الفصل الثاني

تفسير تعدية الأفعال الجنسية الصريحة

إلى الجواري دون الحرائر

هذه محاولة لتفسير هذه الظاهرة اللغويّة والاجتماعيّة، حاولت بذلك أن أتلمس بعض الأسباب التي بدا لي أنّها قد تصلح تفسيرًا لهذه الظاهرة مستعينًا ببعض النصوص التي قاربت هذا الموضوع مقاربات جزئيّة متعدّدة، منها السياسيّ، ومنها الثقافي، ومنها الدينيّ، ومنها الاجتماعي. وهذه النصوص التي تحصّلتُ عليها فيها ما يُعلي من مكانة الجواري، وفيها ما يجعلها في منزلة دون الحرائر.

المبحث الأوّل: العامل السياسيّ

حظيت الجواري بمكانة سياسيّة عليا، وخاصة في العصر العبّاسيّ، فغالب خلفاء بني العبّاس كانت أمّهاتهم من الجواري، فهذه الخيزران زوجة الخليفة المهدي وأمّ الخليفة هارون الرشيد كانت جارية مملوكة من مولّدات اليمن(١)، وهذه ريطة بنت العبّاس بن عليّ زوجة المتوكّل على الله العبّاسيّ(٢)، والجارية مخارق والدة الخليفة العبّاسيّ المستعين بالله كانت روسيّة الأصل(٣)، والجارية فريدة صاحبة الواثق بالله من اسمها يدرك المطلع على التاريخ العربيّ أنّها جارية، وليست حرّة؛ لأنّ اسم فريدة من أسماء الجواري المملوكات عند العرب(٤)، والجارية قرّة العين أرجوان أمّ الخليفة المقتدي بأمر الله، وكانت جارية أرمنيّة(٥)، وشجر

(١) انظر: سيدات البلاط العباسيّ: مصطفى جواد، دار وحي القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص١٤.

(٢) السابق، ص٢٠.

(٣) انظر: السابق، ص٦١.

(٤) انظر: السابق، ص٦٤.

(٥) انظر: السابق، ص١٣٢.

الدرّ جارية الملك نجم الدين أيّوب التي تولّت السلطة في مصر، وخطب لها على المنابر، ونقش اسمها على الدينار والدرهم(١). و"يذكر المؤرّخون أنّ الجارية ذات الخال ملكت زمام أمير المؤمنين هارون الرشيد حتّى إنّه أقسم يومًا أنّها لا تسأل شيئًا إلا قضاه لها فطلبت منه أن يولّي أحد المقرّبين إليها الحرب والخراج بفارس مدّة سبع سنين فامتثل لها، وكتب لها عهدًا به، وشرط على وليّ عهده من بعده أن يتمّها له إن لم تتمّ في حياته"(٢).

يتّضح من النصوص السابقة أنّ للجواري مكانة سياسيّة مرموقة بوصفهنّ أمّهاتِ ولدٍ لبعض الخلفاء العبّاسيّين، وبعضهنّ أنجبن بعض من تولّى الخلافة فيما بعد، قال ابن حزم: ما ولي الخلافة في الصدر الأوّل من أمُّه أمَة إلّا يزيد بن الوليد، وما ولي الخلافة من بني العبّاس من أمّه حرّة إلّا السفّاح والمهديّ والأمين، وما ولي الخلافة من بني أميّة في الأندلس من أمّه حرّة أصلًا٣. وبعض الجواري شاركن في أمور السياسيّة، وتدبير الملك مثل جارية الرشيد ذات الخال، ويلحظ من سيرة شجر الدرّ أنّها قد حكمت مصر مدة من الزمن.

المبحث الثاني: العامل الثقافيّ

لعلّ من أبرز ما أسهمت فيه الجواري في الحياة الإسلامية في عصر بني أميّة، وعصر بني العبّاس، وما بعدهما أنّهنّ قد شاركن في الحياة الثقافيّة المزدهرة في تلك العصور فهذه الجارية فضل صاحبة الخليفة المتوكّل من اللواتي ثقفن

(١) المستظرف من أخبار الجواري: جلال الدين السيوطيّ، دار نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، د.ط، ٢٠١٤م، ص٣٥.

(٢) حكايات الجواري في قصور الخلافة: سعيد أبو العينين، دار أخبار اليوم، د.ط، ١٩٩٨م، ص٢٣.

(٣) انظر: دولة النساء معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة، عبد الرحمن البرقوقي، ص٦٢٧.

بالثقافة العربيّة، ودُرّبن على الإنشاء والإيقاع والعزف والغناء[١]، وقد ترجم أبو الفرج الأصفهانيّ لطائفة من الجواري اللواتي اشتهرن بالشعر والغناء، وبعض المعارف في العصر الأمويّ، وشيء من العصر العباسيّ مثل: عنان جارية الناطفي الشاعرة الشهيرة[٢]، و"دنانير جارية محمّد بن كناسة مولّدة من مولّدات الكوفة ربّاها محمّد بن كناسة، وأدّبها وخرجت شاعرة، أديبة، فصيحة"[٣]، وفضل جارية المتوكّل التي "كانت سمراء حسنة الوجه والقد والجسم شكلة حلوة أديبة فصيحة سريعة الهاجس مطبوعة في قول الشعر متقدّمة لسائر نساء زمانها فيه"[٤]، وصرف جارية ابن خضير مولى جعفر بن سليمان، وقد كانت "شاعرة، فصيحة، مغنية، حسنة الوجه والغناء، كاتبة من مولدات البصرة، ولها صنعة في الغناء"[٥]، وسمراء، وهيلانة وهما "شاعرتان مولدتان كانتا لرجلين من نخّاسي بغداد، وكان الشعراء أيام المعتصم وقبلها يدخلون عليهما يسمعون صوتهما ويقيمون عندهما، ويجتمع لذلك أهل الأدب والكتّاب فينفقون عليهما"[٦]، وعَريب المأمونيّة، وصفها إسحاق الموصلي بقوله: "ما رأيت امرأة قطّ أحسن وجهًا وأدبًا وغناءً وشعرًا وضربًا ولعبًا بالشطرنج والنرد من عَريب، وما تشاء أن تجد خصلة حسنة ظريفة بارعة في امرأة إلّا وجدتها فيها"[٧]، ومحبوبة جارية المتوكّل وقد "كانت مولدة، شاعرة، مغنية، متقدّمة في الحالتين على طبقتها، حسنة الوجه

(١) انظر: سيدات البلاط العباسيّ: مصطفى جواد، ص٨٢.

(٢) انظر: الإماء الشواعر: أبو الفرج الأصفهانيّ، تحقيق: جليل العطية، دار النضال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٧-ص٥٠.

(٣) السابق، ص٥٣.

(٤) السابق، ص٦٠.

(٥) السابق، ص٩٧.

(٦) السابق، ص١٢٥.

(٧) السابق، ص١٣٦.

والغناء"[١]، وبدعة الكبيرة جارية عريب مولاة المأمون، كانت أحسن دهرها وجهًا وغناءً، ولها شعر ليّن يستحسن من مثلها[٢]، توفيت سنة ٣٠٢هـ[٣].

ويؤكّد عبد الله الغذّامي أنّ: "المرأة الحرّة لا تمارس الثقافة سوى استثناءات يسيرة لا تشكّل نسبة ذات اعتبار، وكثيرًا ما يحدث التكتّم على اسم المرأة الحرّة إذا ما صارت على قدر من الثقافة المحتكرة على الجواري مثل حال عليّة بنت المهدي، فالجواري وحدهنّ المثقّفات، وهنّ وحدهنّ من يحتاج [إلى][٤] الثقافة؛ ولذا فالثقافة لهنّ بضاعة وتجارة مثلما أنّ جسد الجارية بضاعة وتجارة. ومن شأن هذا النوع من الثقافة أن يكون مادّة معروضة للفحص والامتحان والتقييم، إنّها إذن ثقافة كشف وعرض. ومن مسلّمات ذلك العصر أنّ جهل الحرّة لا يضرّ، وربّما كان مطلوبًا ومفضّلًا، أمّا ثقافة الجارية فهي مطلب تجاريّ ملحّ"[٥].

وقد أسهمت بعضهن في دعم التعليم مثل: الجارية بنفشة روميّة الأصل من الجواري اللواتي أفضت بهن النخاسة إلى دار الخلافة العبّاسيّة، وقد أنشأت مدرسة اتّخذتها للحنابلة سنة ٥٧٠هـ[٦]، والجارية زمرد خاتون كانت مملوكة تركيّة بنت مدرسة للشافعيّة بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي[٧].

---

(١) الإماء الشواعر: أبو الفرج الأصفهانيّ، ص١٥٩.

(٢) انظر: المستظرف من أخبار الجواري: جلال الدين السيوطيّ، ص٨.

(٣) انظر: معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام خطوة نحو معجم متكامل: عبد مهنّا، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٥.

(٤) زيادة اقتضتها الصحّة اللغويّة؛ لأنّ الفعل (احتاج) ومشتقاته تتعدّى بحرف الجرّ (إلى).

(٥) المرأة واللغة: عبد الله الغذّامي، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص١٠٠.

(٦) انظر: سيدات البلاط العباسيّ: مصطفى جواد، ص١٦٤.

(٧) انظر: السابق، ص١٧٤، ص١٧٥.

وممّا يندرج ضمن المكانة الثقافيّة للجواري ثقافة توظيف النصوص الدينيّة في الاحتجاج، ويتجلّى ذلك فيما أورده ابن حجّة الحمويّ إذ قال: إنّ "الرشيد سأل جعفرًا عن جواريه، فقال يا أمير المؤمنين، كنتُ في الليلة الماضية مضطجعًا، وعندي جاريتان وهما يكبّساني، فتناومت عنهما؛ لأنظر صنيعهما، وإحداهما مكّيّة، والأخرى مدنيّة، فمدّت المدنيّة يديها إلى ذلك الشيء فلعبت به، فانتصب قائمًا، فوثبت المكيّة، وقعدت عليه، فقالت المدنيّة: أنا أحقّ به؛ لأنّني حُدّثتُ عن نافع عن ابن عمر عن النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: (من أحيا أرضًا ميتة فهي له). فقالت المكيّة: وأنا حُدّثتُ عن معمر عن عكرمة عن ابن عبّاس عن النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم– أنّه قال: (ليس الصيد لمن أثاره، إنّما الصيد لمن اقتنصه). فضحك الرشيد حتّى استلقى على قفاه، وقال: هل من سلوة عنهما؟ فقال جعفر: هما، ومولاهما بحكم أمير المؤمنين، وحملهما إليه"[1]. ومن مظاهر الثقافة التي اقتصر فعلها على الجواري دون الحرائر صنعة الغناء، قال أبو منصور الأزهريّ: "إنّما قيل: للمغنية قينة إذا كان الغناء لها صناعة"[2].

المبحث الثالث: العامل الاجتماعي

تتعدّد صور الدور الاجتماعي للجواري في المجتمعات الإسلاميّة القديمة؛ إذ تلعب الجواري دورًا بارزًا في الحياة الاجتماعية بصورها المتعدّدة منها الاشتغال في بعض الحرف أو ممارسة بعض العادات التي لا تعمل بها الحرائر، ومنها إحياء مجالس الطرب والمجون ومنادمة بعض الخلفاء والوجهاء والشعراء، ومنها التفنّن بضروب الزينة التي ذاعت واشتهرت عند العرب مع مقدم الجواري.

---

(١) ثمرات الأوراق: ابن حجّة الحمويّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٣.

(٢) تهذيب اللغة: محمّد بن أحمد الأزهريّ، تحقيق: محمّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، جـ٩، ص٢٤٢، مادّة: [ق/ي/ن].

ومن المهن التي تمارسها الجواري ولا تمارسها الحرائر مهنة الغناء، وفي ذلك يقول الأزهريّ إنّ صنعة الغناء كانت من عمل الإماء دون الحرائر(١)، ومنها إدارة مجالس المجون والخمرة، وفي ذلك يقول ناصر الدين الأسد: إنّ هناك عملًا مهمًّا "كان الإماء يقمن به، وكان له فضل كبير في تلظّي لهيب الجسد وانطلاق سُعاره للبغاء والغناء وهو بيع الخمور وإدارة كؤوس الشراب"(٢)، ومن ذلك ما يتعلّق ببعض أشكال الموضات النسائيّة كما ورد في هذا الخبر عن ريطة بنت العبّاس، وهي التي أراد المتوكّل منها أن تطم شعرها وتجعله قصيرًا على مودة الجواري المملوكات في ذلكم الزمان، فأبت وامتنعت أن تغيّر شعرها، فأعلمها أنّه يطلّقها إن لم تفعل ذلك، فاختارت الطلاق فطلّقها(٣). وفي هذا السياق يقول صلاح الدين المنجّد: "وقد كان من أثر تطلّب القيان الحبّ الجنسيّ واستعدادهنّ له أنّهن كنّ يسعين دائمًا أن يكنّ صالحات لذلك، فدفعهنّ ذلك إلى العناية بأجسامهنّ وشعرهن وخلقهن، فظهر التظرّف والمتظرّفات وازدهر التجمّل الصناعيّ ازدهارًا واسعًا"(٤). ويضيف شوقي ضيف إلى ذلك ما نصّه: "وكان الرجال بعامّة يفضّلونهنّ [أي: الجواري] على الحرائر؛ لأنّهنّ كنّ من أجناس مختلفة، فمنهنّ السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات، أيضًا ربّما كان للحجاب دخل في ذلك، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر، أمّا الجواري فكنّ معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم، فكانوا

(١) انظر: تهذيب اللغة: محمّد بن أحمد الأزهريّ، جـ٩، ص٢٤٢، مادّة: [ق/ي/ن].

(٢) القيان والغناء في العصر الجاهليّ: ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م، ص٤١.

(٣) انظر: سيدات البلاط العبّاسيّ: مصطفى جواد، ص٢٠.

(٤) الحياة الجنسيّة عند العرب من الجاهليّة إلى أواخر القرن الرابع الهجريّ: صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م، ص٧٩.

يختارونهنّ حسب مشيئتهم وهواهم"[١]. ويضيف شوقي ضيف أيضًا القول: "وكانت كثيرات منهن يثقفن بفنون الآداب، فكنّ يجمعن إلى جمالهنّ عذوبة الحديث فيملأنَ على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم، بل كان منهن من يتقنّ نظم الشعر مثل: عنان جارية الناطفي، وسكن جارية محمود الورّاق"[٢]. وعن مهنة الغناء يؤكّد شوقي ضيف ذلك بقوله: "وقد جعل هذا الغناء الذي ملأ حياة الناس، واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجواري المسمين بالقيان اللائي كنّ يتقنّه ويدلعن ناره في القلوب ونسيمه الحلو الصافي"[٣]. وعن ظرف الجواري ورقّتهن يقول شوقي ضيف: "وقد أشاع هؤلاء الجواري والقيان في المجتمع كثيرًا من ضروب الرقّة والظرف، فقد جعلت كثرة معاشرتهنّ الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهنّ، وكيف يستنزلونهنّ بالكلام الرقيق إلى ودّهم، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان"[٤]. وقد كانت الجواري ذوات ثقافة أدبيّة واسعة وظّفنها في تعاملنهنّ مع المريدين لهنّ، وفي ذلك يقول شوقي ضيف: "واستغللن [أي الجواري] أبيات الحبّ والعشق كثيرًا لا في أحاديثهن فحسب، بل في كلّ ما يتّصل بهنّ، فكنّ يكتبن على المناديل الحريرية التي يرسلن بها تذكارًا إلى عاشقيهنّ، وقد يكتبنها على عصائبهنّ وذوائبهنّ وثيابهنّ وأكمامهنّ وفرشهنّ وما يمسكن به من مراوح"[٥].

ومن المظاهر الاجتماعيّة أيضًا تخصيص اللغة لبعض الألفاظ التي تختلف في الإطلاق بين الحرائر والجواري، ومن ذلك قول الأصمعيّ: "ويقال زنى فلان،

(١) تاريخ الأدب العربيّ العصر العبّاسي الأوّل: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة السادسة عشرة، ١٩٦٦م، ص٥٧.

(٢) السابق، ص٦١.

(٣) السابق، ص٦١.

(٤) السابق، ص٦٣.

(٥) السابق، ص٦٤.

وعهر في الإماء والحرائر، وساعى ولا يكون إلّا في الإماء"[١]، ومنها ما يتعلق بالشتائم الخاصّة بالجواري مثل: دفارِ، ومنها ما يتعلّق بالزيّ الذي لا يليق إلّا بالحرائر، فتمنع عنه الجواري كالخمار قال الصغانيّ: "دفارِ، يقال للأمة إذا شتمت: يا دفارِ، ورأى عمر –رضي الله عنه– أمة متقنّعة، فرفع إليها الدرّة وقال: ألقي عنك الخمار يا دفارِ، أتتشبهينَ بالحرائر، ومعناها: يا دَفِرة أي: يا منتنة"[٢]. ومنها بعض الممارسات الجنسيّة التي تترفّع عنها الحرائر، فقد ظنّ بعضهم أنّه يستطيع ممارستها مع الجواري، وأنّ ذلك جائز فعله معهنّ، فقد جاء في الخبر ما نصّه "أخبرنا عبد الله بن صالح حدثني الليث حدثني الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: ما تقول في الجواري حين أُحمّض لهنّ؟ قال: وما التحميض؟ فذكرت الدبر فقال: هل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟"[٣]. ومن ذلك أيضًا بعض الأوضاع الجنسيّة التي قد يخصّون بها الجواري دون الحرائر، وقد اشتهرت هذه الأوضاع الجنسيّة في المجتمعات الإسلاميّة بسبب انتشار الجواري، يقول صلاح الدين المنجّد: "وهكذا عُرِفَتْ بواسطة هؤلاء القيان والجواري أساليب مختلفة من الحبّ الجنسيّ في الاضطجاع والاستلقاء على الظهر والانبطاح على البطن والانحناء والوقوف والقعود، وفي كلّ وضع من هذه الأوضاع الستّة استطعن أن يقدّمن اللذّة الجنسيّة إلى الرجال على أساليب مختلفة متنوّعة حتّى بلغت هذه الأوضاع كلّها ستين

---

(١) ما اختلفت ألفاظه واتّفقت معانيه: عبد الملك بن قريب الأصمعيّ، تحقيق: ماجد الذهبيّ، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٦٦.

(٢) ما بنته العرب على فعالِ: الحسن بن محمد الصاغانيّ، تحقيق: عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، د.ط، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م، ص٣٤، ص٣٥.

(٣) سنن الدارميّ: عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارميّ، تحقيق: حسين سليم الداراني، دار المغني، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م، جـ١، ص٧٣٧.

وضعًا، وهذا رقم لم يبلغ عند الأمم الأخرى، ففي عصر النهضة لم يكن يُعرف في إيطالية إلّا ستّة عشر وضعًا لأوضاع الحبّ الجنسيّ"[١]. وفي ذلك يقول الجاحظ أيضًا: "قال بعضهم: كنّا في مجلس رجل من الفقهاء، فقال لي رجل: عندك حرّة أو مملوكة؟ قلت: عندي أمّ ولد، ولمَ سألتني عن ذلك؟ قال: إنّ الحرّة لها قدرها فأردت أن أعلّمك ضربًا من النيك طريفًا، قلت: قل لي: قال: إذا صرت إلى منزلك فنم على قفاك، واجعل مخدّة بين رجليك وركبك؛ ليكون وطاءً لك، ثمّ ادعُ الجارية، وأقم أيرك، وأقعدها عليه، وتحوّل ظهرها إلى وجهك[٢].

وكان بعض الشعراء الغزلين لا يتغزّل بالجواري ترفُّعًا كما نُقِلَ عن عمر بن أبي ربيعة، يقول أحمد خليل جمعة: "ولعلّ نفسيّة عمر [بن أي ربيعة] كانت تأبى عليه أن يتغزّل بالجواري"[٣].

كلّ هذه المظاهر السابق ذكرُها تنبئ عن بعض الممارسات الاجتماعيّة التي اشتُهرت بين الجواري، وكانت تأنف عنها الحرائر.

ومن الجواري اللواتي اشتهرن بمنادمة علية القوم والشعراء وأهل الفنّ تزيف جارية المأمون التي كانت مقدّمة عنده على باقي محظيّاته، وقد رثت المأمون بعد وفاته[٤]، وتيماء جارية خزيمة بن خازم النهشليّ[٥]، وخزامى جارية الضبط المغنّي، مغنية وشاعرة من مغنيات وشواعر الدولة العبّاسيّة كانت تنادم

(١) الحياة الجنسيّة عند العرب من الجاهليّة إلى أواخر القرن الرابع الهجريّ: صلاح الدين المنجّد، ص٧٩.

(٢) رسائل الجاحظ وهي رسائل منتقاة من كتب الجاحظ لم تنشر قبل الآن: عمرو بن بحر الجاحظ، جمعها ونشرها: حسن السندوبيّ، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، جـ٢، ص١٣١.

(٣) نساء في قصور الأمراء: أحمد خليل جمعة، دار اليمامة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٧٤.

(٤) انظر: معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام خطوة نحو معجم متكامل: عبد مهنّا، ص٣٢.

(٥) انظر: السابق، ص٣٥.

عبد الله بن المعتزّ[١]، وريم جارية أشجع السلميّ كانت شاعرة، وكانا يعشقان بعضهما عشقًا قويًّا حتّى حلفت ريم إن مات أشجع قبلها فإنّها لن يحكم عليها رجل أبدًا[٢]، ودقاق جارية يحيى بن الربيع كانت جميلة ومغنية واشتهرت بالمجون والظرف[٣].

وقد "تنبّه تجّار الرقيق والنخّاسون إلى ميل الخلفاء والموسرين إلى اقتناء الجواري والغلمان متأثرين بعادات ملوك الفرس"[٤]، وقد كان مسلمة بن عبد الملك يعجب من رجل كان صاحب سراريّ ثمّ اتّخذ مهيرات[٥]، وقد عدّد خالد بن صفوان للخليفة السفّاح صفات الجواري المستملحة: الصفات الخَلْقيّة، والصفات الخُلُقيّة في هذا النصّ: "يا أمير المؤمنين، إنّي فكّرت في أمرك، وسعة ملكك، وقد ملّكتَ نفسك امرأة واحدة، فإن مرضتْ مرضتَ أنت، وإن غابت غبتَ أنت، وحرمت يا أمير المؤمنين نفسك التلذّذ بالجواري الطريفات، ومعرفة أخبار خالاتهنّ، والتمتّع بما تشتهي منهنّ. فإنّ منهنّ، يا أمير المؤمنين، الطويلة التي تُشتهى لجسمها فهي الغيداء، وإن منهن البضّة البيضاء التي تُحبّ لروعتها، والسمراء اللعساء، والصفراء العجزاء الذهبية من مولّدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسن العذبة والجواب الحاضر، تفتن بمحادثتها، وتلذّ بخلوتها، ومنهنّ

(١) انظر: معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام خطوة نحو معجم متكامل: عبد مهنّا، ص٧٣.

(٢) انظر: السابق، ص٩٨.

(٣) انظر: المستظرف من أخبار الجواري: جلال الدين السيوطيّ، ص٢٤.

(٤) ديوان فضل جارية المتوكّل، تحقيق: شاكر عاشور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م، ص٥.

(٥) انظر: دولة النساء معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة: عبد الرحمن البرقوقي، ص٦٢١.

المولّدات البصريات والكوفيات ذوات القدود المهفهفة والأوساط المخصّرة والأصداغ المزرفنة والعيون المكحّلة والثديّ المحقّقة"[١].

وكلّ ذلك ناجم من شدّة ولوع المجتمع الإسلاميّ في ذلك الوقت باقتناء الجواري، وتفضيلهنّ على كثير من الحرائر، وقد حدا بهم هذا الافتتان بالجواري إلى تصنيفهنّ تصنيفًا اجتماعيًّا، وفي ذلك ما نصّه "قال عبد الملك بن مروان: من أراد الباءة فعلية بالبربريّات، ومن أراد الخدمة فعليه بالروميّات، ومن أراد النجابة فعليه بالفارسيّات"[٢]. وقد نالت كثير من الجواري مكانة اجتماعيّة مرموقة بقربهنّ من غالب علية القوم، والمثقّفين في تلك الأعصر يقول ناصر الدين الأسد: "ولم يكن عمل الإماء مقصورًا على الخدمة وتولّي الأعمال، وإنّما كنّ يُبتغين متاعًا للرجل، ويتّخذن حليلات حينًا، وخليلات في أكثر الأحيان"[٣]، ويقول أيضًا: "إذا كانت المرأة المسبية ذات جمال وفتنة أو مكانة في قومها كانت تربأ بنفسها عن الخدمة، وتطمع في أن تفوز بسيّد القبيلة أو رئيس القوم فتتصدّى له؛ لتصيد قلبه فيتّخذها لمتعته، قال أبو ذؤيب الهذلي:

عشية قامت بالفناء كأنّها ... عقيلة نهب تُصطفَى وتغوج"[٤]

المبحث الرابع: العامل الدينيّ

المقصود بالعامل الدينيّ في هذا المبحث منحصر بما وضعه الإسلام من خصائص اجتماعيّة تتعلّق بالجواري، وسنّ بعض الأحكام الخاصّة بهنّ ممّا يُغري باقتنائهنّ للمتعة الجنسيّة، ومن ذلك ما يأتي:

---

(١) سيدات البلاط العباسيّ: مصطفى جواد، ص٩.

(٢) دولة النساء معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة: عبد الرحمن البرقوقي، ص٦٢١. وانظر: أخبار النساء لابن القيّم الجوزية، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٨٢م، ص١١.

(٣) القيان والغناء في العصر الجاهليّ: ناصر الدين الأسد، ص٣٨- ٣٩.

(٤) السابق، ص٣٩.

جواز العزل عنهنّ دون إذنهنّ لمن لا يريد حملهنّ، فمن المقرّر دينيًّا أنّ العزل لا يكون مع الحرّة إلّا بعد إذنها، ولا يشترط الإذن في العزل مع الجارية، وفي ذلك قال الشيخ محمّد بن عثيمين: "العزل أثناء الجماع بدون سبب، فالصحيح من أقوال أهل العلم أنّه لا بأس به لحديث جابر –رضي الله عنه– (كنّا نعزل والقرآن ينزل) يعني على عهد النبيّ –صلّى الله عليه وسلّم–، ولو كان هذا الفعل حرامًا لنهى الله عنه، ولكنّ أهل العلم يقولون: إنّه لا يعزل عن الحرّة إلّا بإذنها أي: لا يعزل عن زوجته الحرّة إلّا بإذنها؛ لأنّ لها حقًّا في الأولاد، ثمّ إنّه في عزله بدون إذنها نقص في استمتاعها، فاستمتاع المرأة لا يتمّ إلّا بعد الإنزال"[(١)]. وقد قال في ذلك ابن حجر العسقلانيّ (ت٨٥٣هـ): "واتّفقت المذاهب الثلاثة على أنّ الحرّة لا يُعزَل عنها إلّا بإذنها، وأنّ الأمة يعزل عنها بغير إذنها"[(٢)]. ونقل ابن حجر أيضًا أنّ "الرؤساء في الصدر الأول كانوا يستنكفون غالبًا من وطء الإماء، ويتنافسون في الحرائر ثمّ انعكس الأمر، ولا سيّما في أثناء دولة بني العبّاس"[(٣)].

ومن الأحكام الشرعيّة أيضًا عدم اشتراط العدل مع الجواري، وفي ذلك قال القرطبيّ (ت٦٧١هـ) في قوله تعالى: "{أو ما ملكت أيمانكم} يريد الإماء وهو عطف على (فواحدة) أي: إن خاف ألّا يعدل في عِشْرة واحدة فما ملكت يمينه،

---

(١) فتاوى إسلاميّة لأصحاب الفضيلة العلماء سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وفضيلة الشيخ محمّد بن صالح بن عثيمين وفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين إضافة إلى اللجنة الدائمة وقرارات المجمع الفقهيّ: محمّد بن عبد العزيز المسند، دار الوطن، الرياض، المملكة العربيّة السعوديّة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، جـ٣، ص١٩١.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: أحمد بن عليّ العسقلانيّ، تحقيق: محمّد فؤاد عبدالباقي، راجعه: محبّ الدين الخطيب، علّق عليه: العلّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٣٧٩هـ، جـ٩، ص٣٠٨.

(٣) السابق، جـ١، ص١٢٢.

وفي هذا دليل على أن لا حقَّ لملك اليمين في الوطء أو في القَسْم إلّا أنّ ملك اليمين في العدل قائم بوجوب حسن الملكة، والرفق بالرقيق"[١]. ومن الأحكام الشرعيّة أيضًا أنّ ملك اليمين لم يُقيَّد بعدد محدّد مثل الزوجات الحرائر، قال أبو حيّان الأندلسيّ (ت٧٤٥هـ): إنّه "لم يقيّد مملوكات اليمين بعدد، فيجوز أن يطأ ما شاء منهنّ؛ لأنّه لا يجب العدل بينهنّ لا في القسم ولا في النفقة ولا في الكسوة"[٢]. ويلخّص الأحكام الشرعيّة التي تفترق فيها الجواري عن الحرائر الرازيّ (ت٦٠٤هـ) إذ قال: "ولعمري إنّهنّ [أي: الجواري] أقلّ تبعة، وأخفّ مؤونة من المهائر، لا عليك أكثرت منهم أم أقللت، عدلت بينهنّ في القسم أم لم تعدل، عزلت عنهنّ أم لم تعزل"[٣].

ويعلّق على نظرة الإسلام إلى أحكام الجواري الشرعية حكمت بشير الأسود بقوله: "في حين كان المجتمع يطلب من المرأة أن تصون نفسها عمّا يشينها، وتحافظ على عفّتها، ولا تعرض نفسها للزنا، نراه متسامحًا مع الرجل الذي كان باستطاعته أن يتّصل بالإماء اللواتي يمتلكهنّ، أو يعاشر الزانيات في خارج البيت"[٤]، لعلّ حكمت بشير الأسود يُنازَع في آخر فقرة من رأيه عند قوله: (أو

(١) الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السنّة وآي الفرقان: محمّد بن أحمد القرطبيّ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقوسي وماهر حبّوش، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، جـ٦، ص٣٨.

(٢) البحر المحيط في التفسير: أبو حيّان الأندلسيّ، تحقيق: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، جـ٣، ص٥٠٧.

(٣) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازيّ، تحقيق: سيّد عمران، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ط، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م، جـ٥، ص١٧٠.

(٤) الحبّ والغزل والجنس في حضارات بلاد الرافدين في ضوء النصوص المسماريّة والمشاهد الفنيّة: حكمت بشير الأسود، دار قناديل، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م، ص٤٩.

يعاشر الزانيات في خارج البيت)، فليس الإسلام يجيز الزنا، ومعاشرة الزواني في أيّ حال من الأحوال، ولعلّ قصده في ذلك نظرة بعض طوائف المجتمعات إلى الرجل في أنّه لا يحاسب مجتمعيًّا على ما يقترف من محرّمات كثيرة كما تُحاسَب النساء.

كلّ هذه الميزات التي منحها الإسلام لمقتني الجواري جعل منهنّ محظيات عند أسيادهنّ في تلك الأعصر التي كانت فيها الجواري يُقتنين لأغراض عدّة من أهمها المتعة الجنسيّة.

**

الخاتمة

وبعد هذا التطواف مع النصوص التي وظفتُها في خدمة هذا البحث أصل إلى النتائج التي أسفر عنها هذا البحث، ومن أهمّها:

النتيجة الأولى: كانت الأفعال الجنسيّة التي تستعمل مع الجواري في غالبها مفصّلة تصف تفصيلات العلاقة الجنسيّة بين السادة وجواريهم.

النتيجة الثانية: جاءت الأفعال الجنسيّة التي تستعمل مع الحرائر مجملة، وفيها احتشام؛ لأنّ العرب يأنفون من التحدّث عن علاقاتهم الجنسيّة مع زوجاتهم.

النتيجة الثالثة: ورد القليل من الأفعال الجنسيّة التي فيها احتشام مع الجواري؛ ويبدو لي أن السبب في ذلك أنّ بعض الجواري اللواتي كنّ أمهات ولد كنّ يعاملن مثل الزوجات الحرائر، فبعضهن ذوات مكانة عالية مثل: جواري بعض الخلفاء وجواري علية القوم في تلك الأعصر.

النتيجة الرابعة: كان لتفنّن كثير من الجواري في الزينة والإغراء ما جعل أسيادهنّ يفضلونهنّ على كثير من الحرائر في جانب المتعة الجنسيّة.

النتيجة الخامسة: شاع في العصر العبّاسيّ وما بعده سطوة الجواري على الخلفاء بأن كان منهنّ مسيطرات على القرار السياسيّ، وتدبير شؤون السياسة والحكم، وهذا من شأنه أن يجعلهنّ ينافسن الحرائر في المكانة.

النتيجة السادسة: كان توظيف كثير من الجواري لثقافتهنّ الأدبيّة والدينيّة دورًا بارزًا في علوّ كعبهنّ في الحياة الثقافيّة في تلك الأعصر.

النتيجة السابعة: أسهمت بعض الأحكام الشرعيّة الخاصّة بالجواري في التعلّق بهنّ والمكاثرة في اقتنائهنّ؛ بسبب عدم اشتراط العدل معهنّ إلّا بالمعروف، وبعدم اشتراط عددهنّ فقد يقتني السيّد عددًا كبيرًا منهنّ دون نكير، وبعدم اشتراط إذن الجواري بالعزل عنهنّ كالحرائر.

النتيجة الثامنة: ساعد علم اللغة الإنثروبولوجيّ في تفسير بعض مظاهر الثقافة التي جعلت هذه الظاهرة منتشرة ممّا انعكس أثره على اللغة وتعبيراتها عن الأفعال الجنسيّة مع الجواري.

النتيجة التاسعة: كان لانتشار مجالس المجون والطرب وما يصحبها من الخمور والغناء والرقص وغيرها من مظاهر الترف السبب المباشر في المجاهرة في مدح الجواري وما يفعلن، وهذا يعبّر عنه بواسطة اللغة، وبخاصّةٍ جانبُ التعبير عن أفعال الجنس بالتفصيل.

النتيجة العاشرة: تعدّ المعجمات اللغويّة كنزًا أصيلًا في حفظ كثير من مظاهر الثقافة العربيّة بشتّى صورها، ومنها الثقافة الجنسيّة.

ومن أبرز التوصيات التي توصي بها هذه الدراسة ما يأتي:

التوصية الأولى: ضرورة دراسة الثقافة الجنسيّة عند العرب القدماء بالاستعانة بالمعلومات الواردة في دلالات الألفاظ المدوّنة في المعجمات اللغويّة.

التوصية الثانية: تفسير وتحليل الثقافة الجنسيّة عند العرب يكون بالتوسّل بمعطيات علم اللغة الإنثروبولوجيّ، وبخاصّة الجانب الذي يهتمّ بدراسة الجنس، وثقافته عند مختلف الشعوب في هذا الشأن.

**

المصادر والمراجع

- أخبار النساء: ابن القيّم الجوزيّة، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٩٨٢م.
- الإماء الشواعر: أبو الفرج الأصفهانيّ، تحقيق: جليل العطية، دار النضال، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.
- الأنثروبولوجيا الألسنيّة: ألسندرو دورانتي، ترجمة: فرانك درويش، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م.
- الأنثروبولوجيا الثقافيّة: فاروق مصطفى إسماعيل، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.
- أنثروبولوجيا الجنس: هاستنغر دونان & فيونا ماغوان، ترجمة: هناء خليف غني، المركز الأكاديميّ، للأبحاث، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.
- الأنثروبولوجيا اللغويّة: مها محمّد معاذ، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، مصر، د.ط، ٢٠٠٧م.
- البحر المحيط في التفسير: أبو حيّان الأندلسيّ، تحقيق: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م.
- تاج العروس من جواهر القاموس: محمد مرتضى الحسيني الزبيديّ، تحقيق: عبد السلام هارون، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.
- تاريخ الأدب العربي: العصر العبّاسي الأوّل: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، الطبعة السادسة عشرة، ١٩٦٦م.
- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب: فخر الدين الرازيّ، تحقيق: سيّد عمران، دار الحديث، القاهرة، مصر، د.ط، ١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م.

- تهذيب اللغة: محمّد بن أحمد الأزهريّ، تحقيق: محمّد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.
- ثمرات الأوراق: ابن حجّة الحمويّ، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
- الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السنّة وآي الفرقان: محمّد بن أحمد القرطبيّ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ومحمد رضوان عرقوسي وماهر حبّوش، مؤسّسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- الجواري والغلمان في الثقافة الإسلاميّة مقاربة جندريّة: وفاء الدريسيّ، مؤمنون بلا حدود، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠١٦م.
- الحبّ والغزل والجنس في حضارات بلاد الرافدين في ضوء النصوص المسماريّة والمشاهد الفنيّة: حكمت بشير الأسود، دار قناديل، بغداد، العراق، الطبعة الأولى، ٢٠٢٠م.
- حكايات الجواري في قصور الخلافة: سعيد أبو العينين، دار أخبار اليوم، د.ط، ١٩٩٨م.
- الحياة الجنسيّة عند العرب من الجاهليّة إلى أواخر القرن الرابع الهجريّ: صلاح الدين المنجّد، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.
- دولة النساء معجم ثقافي اجتماعي لغوي عن المرأة: عبد الرحمن البرقوقي، اعتنى به بسّام الجابي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
- ديوان فضل جارية المتوكّل، تحقيق: شاكر عاشور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.

- رسائل الجاحظ وهي رسائل منتقاة من كتب الجاحظ لم تنشر قبل الآن: عمرو بن بحر الجاحظ، جمعها ونشرها: حسن السندوبيّ، المطبعة الرحمانيّة، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.
- سنن الدارميّ: عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارميّ، تحقيق: حسين سليم الداراني، دار المغني، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ٢٠٠٠م.
- سيدات البلاط العباسيّ: مصطفى جواد، دار وحي القلم، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م.
- فتاوى إسلاميّة لأصحاب الفضيلة العلماء سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز وفضيلة الشيخ محمّد بن صالح بن عثيمين وفضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين إضافة إلى اللجنة الدائمة وقرارات المجمع الفقهيّ: محمّد بن عبد العزيز المسند، دار الوطن، الرياض، المملكة العربيّة السعوديّة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- فتح الباري شرح صحيح البخاريّ: أحمد بن عليّ العسقلانيّ، تحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، راجعه: محبّ الدين الخطيب، علّق عليه: العلّامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، ١٣٧٩هـ.
- قاموس علم اللغة إنجليزيّ-عربيّ: محمود سليمان ياقوت، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م.
- القيان والغناء في العصر الجاهليّ: ناصر الدين الأسد، دار الجيل، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٩٨٨م.
- لسان العرب: محمّد بن مكرم ابن منظور، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

– ما اختلفت ألفاظه واتّفقت معانيه: عبد الملك بن قريب الأصمعيّ، تحقيق: ماجد الذهبيّ، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
– ما بنته العرب على فعالِ: الحسن بن محمد الصغانيّ، تحقيق: عزة حسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، د.ط، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
– المرأة واللغة: عبد الله الغذّامي، المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م.
– المستظرف من أخبار الجواري: جلال الدين السيوطيّ، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ٢٠١٤م.
– معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام خطوة نحو معجم متكامل: عبد مهنّا، دار الكتب العلميّة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
– المعجم الوسيط: مجموعة من الباحثين، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة في القاهرة، الطبعة الثانيّة، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
– نساء في قصور الأمراء: أحمد خليل جمعة، دار اليمامة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* * *